يقين الرؤية .. في حدائق الصوت .. للشاعر : د. حسين علي محمد

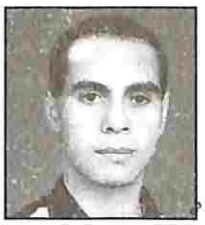

محمد عبدالباسط زيدان
- مصر -

اليقين أو الإبداع :

اليقين في أبسط صوره هو تجريد كلي للموقف دون إيثار يحمل هذا الثبات الروحي النافذ إلى جدل الروح والقلب وصولا إلي جدل اللغة ومراميها وتجلياتها ..،والموضوعية التي هي من أنسجة اليقين تعمل على سد الفراغ بينه وبين ما ينتج عن الانحياز من ترهل في الرؤية وخضوع موطوءلغياب الموقف ..؛ولعل هذا اليقين ينفتح أمام الشاعر إذا كان لا يحس الرد الوثاب بين الكلمة كيقين وبين الموقف كسلوك -عملي - يرتبط بعملية الإبداع وخصوصيتها ومجالاتها المتفردة.

والشاعر حسين علي محمد أحد أقطاب اليقين الرؤيوي القائم على نزع الجدل وأنصاف الحلول للوصول إلى فضاء مباغت من خلال القصيدة -وذلك ناتج عن وعيه بما يكتب ولمن يكتب - هو ونفر قليل معه ، وديوان حدائق الصوت الصادر من الزقازيق بمصر ١٩٩٣م هو جماع الموقف الشعري ليقين الشاعر ومرحلة متوهجة من إبداعه المستمر منذ عشرين سنة .. ولذلك فهو يمسك جيدا بأطراف العملية الإبداعية القائمة على إيجاد اللغة الشعرية - البعيدة عن إطار التقليدية التي تزهق روح القصيدة ، بالإضافة إلى تمل حقيقي لموقفه المتحدد بدوره برؤية كلية لقضايا الإنسان المعاصر متحدة بهذه الرؤية ومنسجمة مع قضايا الذات الشاعرة وتجلياتها وأحلامها وتطلعاتها .. ولتحديد هذه الافتراضات غير الجدلية نجد أنفسنا أمام إطارين هامين من الأطر الكثيرة التى يمكن أن نتناولها داخل المجموعة الشعرية.

الإطار الأول .. هو إطار الموقف وفيه قد مزج الشاعر بين المشهد الكلي لموقف الإنسان العربي المعاصر وتساؤلاته ، وبين المشهد الخاص القائم على تملي الذات من خلال حلم كبير تنصهر فيه الجلود والعظام ، وتنبجس منه عين ماء تتضافر فيها الأيدي وتتوضأ منها القلوب والأرواح ..فلا بد من طرح الفكر حتى يحس الشاعر بصوته وهو يقرع الآذان في مواجهة الموقف المسيطر من الخارج دخولا في بوتقة الحلم ..

الهم الجمعي :

ولعل تقسيمات الديوان الأربعة تجلي هذه النقطة .. وكيف مزج الشاعر إطار الموقف بالحلم بحيث لا نستطيع الفصل بين الذات والموضوع فنجد «حدائق الصوت - زهور بلاستيكية - من دفتر العشق - تجليات الواقف في العراء » وبها تتضح محددات المشهد الشعري عند حسين علي محمد واستبصاره جيدا لموقف الانفلات من الذات المحطمة أحيانا لإمكانات الشاعر إلى الدخول في الهم الجمعي الذي ظل يؤرق الشاعر .. كما يحدثنا في قصيدة «ثرثرة في كراسة عنترة »من تقسيمه الثاني « زهور بلاستيكية ،

ما يو يطوي صفحته السوداء
يحاول أن يقتلع جذور الحزن من القلب
ويعشق عنترة الحرف
يحاول أن يهرع للقران
ويجري في الطرق الوعرة
تنطلق الشمس حصانا يجتر
جبالا ومفاوز (١)

فبمجرد استدعاء عنترة بدلالاته التراثية ومخاوفه وأحزانه ومحاولته أن يهرع للقرآن يفجر القضية المحورية عند الشاعر ، كما أن الإحساس بالهزيمة أو الانهزام الذي يرزح تحته معظم شعراء جيل حسين علي محمد والأجيال التالية لم يعد إحساساً هلاميا ناتجا عن تحولات في الذات أو لموقف متوغل في الانغلاق والغموض ، ولكن الوطء الذي تكب تحته الأرواح بين جدران الأرض الوطن أدخل الإحساس الملازم لقضايا الإبداع وخاصة في مصر فهناك من الشعراء من يبوح بذلك في القصيدة بوحاً تاماً ويضمها للموقف ، الشعري ، ومن الشعراء من يلوذ بالصمت والانغلاق والتستر وراء الكلمات والتخوم والأطلال التي تعبث بظلال القصيدة (لذلك تتبدى كما لو أنها حركة اجتياح لما يظل مجتميا بالصمت لا يطاله الكلام العادي،أو حدث استدعاء للغياب الكامن في الحضور) (٢) وشاعرنا يبوح بذلك كما لو يبدو مؤمنا - وقد بدا فعلا - بعدم الصمت والانغلاق والتستر وراء اللغة

أتسكع
تحت الجدران
وحيدا
منهزما
أمشي
بين قوافل غزلاني
أحرف شعر
أقطر حزنا

ودما
هذي سنة الحزن
لماذا لا تؤويني الكلمات
بمحراب هواها
جراحا ملتئما (٣)

وضوح الرؤية :

وهكذا ينفتح فضاء القصيدة لتبدو رؤية الشاعر واضحة جلية دون خوف أو مرواغة أو حجب ، ولكنه فضاء يوحي بسطوة هذا اليقين الذي افترضناه في البداية - وإذا تحدث الشاعر عن الجواد المكسور - تجليات الواقف فى العراء ، والطوفان ، ومدن الوهم وأقوال غيلان ، فإن موقفه يبدو ساطعا في إطار همه الذاتي أوتكون الذات هي المحور الذي تنطلق منه تجلياته نحو المستقبل والإنسان ونحو اللحظة الشعرية ومكاشفة الواقع - ومزج الخيال بالحزن - والحزن بالرغبة المسيطرة في حلم نظيف.

يبقى أن نقول فى إطار موقف الشاعر الدكتور حسين علي محمد أ ن التصنيف الأدبي حيال نصوص شاعر مثله لم يعد صحيحا لأنه يجمع في النص الواحد اشتعالاته المتطايرة ، بمرايا الماء الراكد ، وأنفاسه اللاهثة بلحظات النشوة من صراع دائم مع الحزن والعبقرية - والرحلة والتفوق فلا مجال إذن للتصنيف أو غيره والتصنيف الذي أعني ليس التصنيف المذهبي «كحركة أدبية تقوم على وجود نظرة محددة للكون والحياة والإنسان .. والمجتمع المحيط .. كما يقول د. شكري عياد (٤) ولكن تصنيف الرؤية واحتكار الشعراء بين الرومانسي والواقعى لم - يعد هذا أوانه -

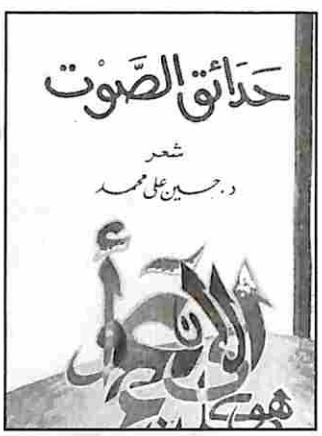

أما - **الإطار الثاني** - وهو إطار اللغة فإنه يعد في حدائق الصوت الوحدة الحية التي جمعت بين صرامة طرح الفكر وبين روعة البناء الشعري ... وفيه أيضا تتحطم أغلال الملل من الصور الكلاسيكية الميتة ، وبعدا عن رضوخ الشعراء للألفاظ المعجمية التي تحجب الرؤية ..

والصورة في الديوان تحمل كثيرا من دلالات نفسية ناتجه عن تجانس - الصوتي مع الاختيار الأمثل لحركة الفونيمات والمورفيمات بين ثنايا النص - وبين الوعي بحركات الإعراب والمد كما في "صرخة أولى"

يباغتني توهج لفظها
النشوانى
بين شقائق النعمان
والريحان
أغنية .....مواويلا (٥)

فمن ناحية لا يخيب طموح القارىء في رصد حركة التوقع التي تأتي أحيانا من تراث القصيدة العمودية .فلا يحرم النص من إيصال التجانس اللفظي إلى مسامع قارىء ليس له شغل كبير بالشعر الحديث .

إلى جانب تصفية الأسلوب ورغبة المباغتة في قوله:

« أغنية .. مواويلا » بما يحمل المعنى من ترادف، ولكن مع وجود فاصل البياض - الذي يعكس بدوره حركة النفس - وأيضا في قوله :

وفيها العصف
فيها القصف

وهكذا ينمو لدى الشاعر إحساس بتوهج المعنى من خلال تبادل المواقع بين الصوامت المجهورة في اللغة العربية ، أما الإضافات التي تحمل ظل الحداثة الشعرية في إطار اللغة أيضاً ، وتجاوز البعيد وبعد القريب ، مع التجسيد والتشخيص- وتراسل الحواس والدلالات المتناقضة فى الصورة الشعرية القائمة على تملي الواقع والحلم .. ومحاولة المزج بينهما ، فهي كثيرة مثل

- فتحت السترة للريح ، وبحت، رأيت القلب ، أبصرت الماء - يحاور قيظي ..والحلم ...الأخضر يجتاح الجسد ..(٦)

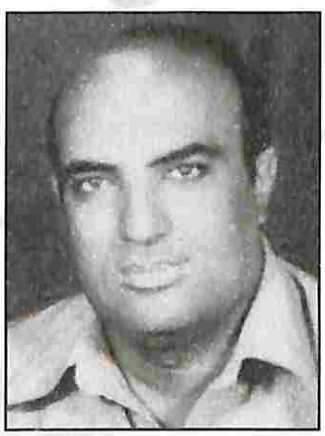
د.حسين علي محمد

وهكذا تحس ببدائية اللغة وبداوتها في آن واحد ، وسيولتها وحركتها وعصريتها بعيدا عن اقتناص الصور القديمة والسطو عليها ، وبعيدا عن البهرجة اللفظية القائمة على الشكلانية الموغلة من الانغلاق بحيث يصبح النص مجرد لغة فقط . .

وبعد : فإن حدائق الصوت - ديوان جدير بالدرس والقراءة لشاعر من شعراء السبعينيات في مصر.

==========

١ - حسين علي محمد- حدائق الصوت - دار الأرقم بمصر - ١٩٩٣م صـ ١٢٨ ـــ .
٢ - محمد لطفي اليوسفي - لحظة المكاشفة الشعرية - الدار التونسية للنشر ١٩٩٢م صـ ٢٣ ـــ .
٣ - الديوان السابق . صـ ١٥١ ـــ .
٤ - شكري محمد عياد . المذاهب الأدبية والنقدية - عالم المعرفة سبتمبر ١٩٩٣ صـ ٦٢ ـــ .
٥ - الديوان السابق صـ ١٨٣ ـــ .
٦ - الديوان السابق صـ ١٨٧ ـــ .

■ نشرت المجلة دراسة سابقة عن ديوان حدائق الصوت في العدد ٢١ صـ ٦٢ـــ . التحرير